الدراسات والبحوث



أنطونيو غالاو

«المخطوط القرمزي»

❁

محمود حامد

«يوميات أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس»

يوميــات تنسف مجمل الوقائع والأحداث تلك التي لفقها التاريخ عن أبي عبــد الله الصغير.. ثم تعيد بما يشبه الاحتمــال صياغتها بصوت صاحبها وأفــكاره بتلك الطريقة السَّاحقــة التي يبثها فينا روائيــاً حاذقاً.. وشاعراً فــذاً يمتلك صميمنا بنظــرةٍ عاتبة أحياناً لوحشة الجنــون التي اعترته في

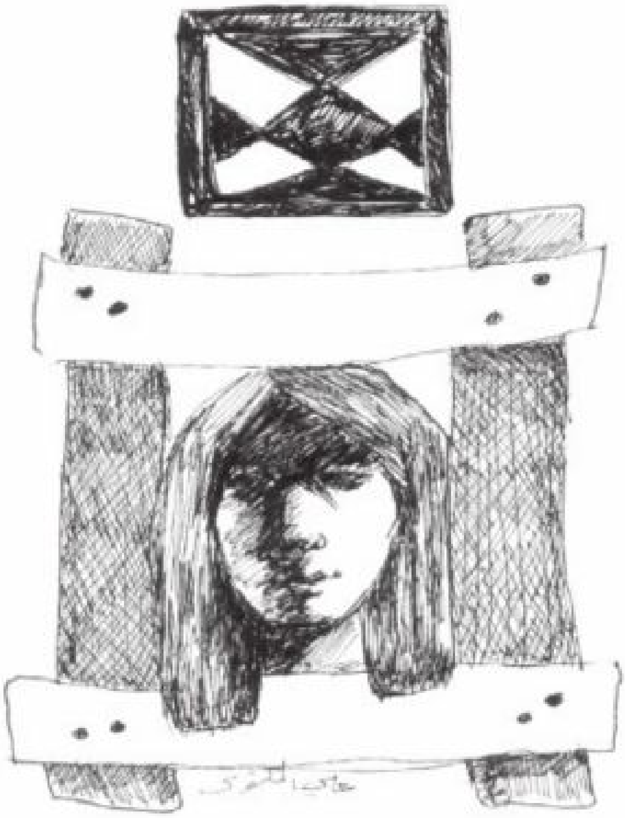
❁❁ أديب وباحث فلسطيني.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

سياق الأحداث التي عاشها، وبدمعة حارقة للوثة الشذوذ التي داهمته أحياناً أخرى لم يستطع الخلاص من شراكها.. وإن حاول أن يقفز فوقها لكنها.. بما انجرف إليه من عواطف ساحقة فقد كان في كل جملة ومُفردة وتعبير

مدهش أخاذ مروّع يضعنا على علة أو سبب من تلك العلات أو الأسباب التي قادته إلى نهايته المحتمة الفاجعة وهو يصرخ في كل من حوله.. أولئك الذين اشتركوا معه في التآمر على ذاته وتاريخ العرب في الأندلس بما يشبه الخرافة، أو الأسطورة: «شُتمتُ على أنني مَنْ ضَيَّعَ المملكة، ومع ذلك لم ينشغل أحد في التحقيق كيف كنتُ فعلاً، ولا ما إذا كنتُ قد قاتلتُ بكل قوايَ، التي للحقيقة، لم تكن كثيرة.. لم يخطر لأحدٍ أنني ربما كنتُ -ليس لأنني ملك- التجسيد الأفضل لشعب مكتوب عليه أن يغادر الجنة.. والزمن الذي كنتُ فيه مأموراً أكثر من الزمن الذي كنت فيه ملكاً.. والزمن الذي كنتُ فيه منفياً أكثر من الزمن الذي كنتُ فيه مُتوجاً.. ألم يكن المؤرخون جائرين عليَّ لصالحهم!!؟».. تلك صيغة مكثفة وحادة جداً لمجمل الآراء والأفكار التي جاهر بها أبو عبد الله الصغير.. ولكن في زمن النُّزوفات السَّاحقة، والمؤامرات الطاحنة، والحوادث الفاجعة ما كان يمكن لأحد أن يقف في ساحة الموت والكارثة وهو يلهث باتجاه الموت أو النجاة ليستمع لصوت أبي عبد الله وهو يحذر ما ليس منه بد أن يقع، أو ليقف على حقيقة ما يجري.. إلا كما ذكر أبو عبد الله أولئك المؤرخون الجائرون الذين يُملون التاريخ لصالح الأقوياء.. أو لصالحهم هم.. كم رغب حتى العظم أبو عبد الله الصغير أن يكون عالماً أو مفكراً أو شاعراً.. ولكن على ما يبدو فإن القدر هو الذي يقرر ما يريد، ويرسم أحوال الكائنات كما يشاء بحرفية سماوية عليا صارمة تعلم صالح الخلائق أين يكمن، وتعلم الطالح منها أين يكون.. «فالقدرُ مكتوب، والصعوبة تكمنُ في معرفة قراءته.. هناك من ينتصبون سادةً بالمصادفة، وبقوة الصراع.. بدءاً من قدرهم الدهمائي، يتحولون إلى منتصبين لما ليس لهم، ويلعبون بالشطرنج باسم التاريخ.. مضحين بكل شيء قطعةً قطعة حتىَّ يُغرقوا الرقع بالدَّم..».

كان أبو عبد الله الصغير يملك فكراً وبصيرةً نفاذة في الأحداث والأيام، وكان مُتيقناً تمام اليقين أن الرجالات والقوى كافة التي تقف في ساح الصراعات لن يخرج في نهايتها غالب على الإطلاق.. كان يعي تماماً بحزن ساحق ممزق بأن الأمة ترسم بصراعاتها نهايتها وأن أفول شمس العرب في الأندلس قادم لا محالة، وأن انكسار الأندلس قادم من الداخل والخارج على السَّواء.. لكن الانكسار الذي يأتي من الدَّاخل هو الطامة الكبرى إذ يأتي على يد العرب أنفسهم؛ ولعل مرآة الأحداث تعكس للمرة الثانية في التاريخ أن ما حصل في الأندلس يتكرر الآن في فلسطين.. بكل زخم الأحداث وتفاصيلها ووقائعها وملابساتها المُرة!! ولكم يكون التصور جارحاً مُراً لاذعاً بقسوة عندما يتصور الإنسان أنه يتحرك فوق رقعة الكون.. حتَّى فوق ترابه الوطني بحرية.. لكنه: «يا للذعر الذي لا رجعة منه حين يتأكد الإنسان أخيراً ويكتشف، وهو يتصرف على أنه حر، أنَّهُ مُستخدم!! لأنه ما من أحدٍ



يتجاوز حيّاً المهمة التي ولد لأجلها!! كل شيء مُسَوّى ومُقاس مُسبقاً!! وما أن تنتهي مُهمته حتَّى يصرعه القوي الوحيد الموجود على الرقعة التي كان قد أخلاها القدر، - قدره هو هذه المرة- بالضربة القاضية. إن الحياة مباراة غير قابلة للاستئناف، ينتهي فيها جميع اللاعبين إلى الخسارة»ص٢٨.

شيء يشبه الخرافة، أو المفاجأة السَّاحقة غير المحتملة.. أو لعلنا أُصبنا -ونحن نتابع المخطوطة القرمزية لأبي عبد الله الصغير- بالدوار والانبهار معاً لذلك التوافق

التاريخي بين مصيري الأندلس وفلسطين!! ينهض من تحت تراب المُفاجآت ومن تحت ركام القرون لينسج من خيطي دم سابق ولاحق رواية العصر!! وراية كلما خفقت فوق سمائها الأرجوانية أمطرت دماً سيظل إلى مالا نهاية يروي تراب العرب وملاحمهم تلك التي تتحدث عنهم عبر الزمان.. وينسج تاريخهم.. «على كل الأحوال فإن التاريخ -كما يقول أبو عبد الله الصغير-: ليس إلا سباقاً لحلول واقع مكان آخر، نعرف من أين يأتي وأين يجري، لكننا لا نعرف في النهاية إلى أين يتجه، ولا متى سينتهي».. أنا بدوري أصبحت لدي قناعة تامة بأن التاريخ يكتبه الأقوياء والمنتصرون وكذلك المؤرخون، وأما الضعفاء والمهزومون فليس لهم شيء من ذاك التاريخ.. ولا حتىَّ تلك الهوامش الغامضة المهملة التي تلوح من بعيد قاحلة، وجوفاء وساذجة ومضطربة.

بقينا دهراً، ومن هم قبلنا، ومن سيأتون بعدنا نعيش بلبلةً كاملة موزعة بين الأفكار والذاكرة والقراءات المشوهة لتاريخ الأندلس الدامي، ولرمز سقوطه المُريع أبي عبد الله الصغير!!؟ ولكنّ ما كشفه أبو عبد الله في أوراقه القرمزية في تلك المخطوطة المكتشفة والمحافظة على نقائها وأفكارها جعلنا.. ونحن العرب العاطفيون حتى الأعماق، والبكاؤون حتى الفاجعة، نميل إلى نسيان الكثير مما نسب لذلك المتوج بلا تاج، ونقف عند حدود ملامسة أفكاره لمشاعرنا الهشة الشفيفة، فنحس أننا نغفر فعلاً -بعد الله- للذي صارحنا بكل المتناقضات منها ما فرضتها عليه الظروف، ومنها ما فرضته عليه الأحداث، ومنها ما شارك بصنعها بإرادة مُستلبة منه أو إرادة غائبة!! وهو هنا يطلعنا فيما يكتب على حيثيّات ما كان: «عندما يكتب أحدٌ ما لأمر أحد، فإنه ينتهي دائماً إلى أنه يكتب الشيء نفسه.. البشر يسيرون على هَدْيِ مصالح رتيبة، والتاريخ يرويه المنتصرون دائماً، فالمهزومون إمَّا أنهم لا يعيشون، أو أنهم يفضلون النسيان، وبالتالي فالنتيجة واحدة»ص٢٢.

وأبو عبد الله لا يُملي على الأجيال أفكاره ووحشة مُعاناته السَّاحقة لتميل بإشفاقها عليه؛ وإنما يفعل ذلك تبرئة لذمته عند مليك عادل في يده أمر كل شيء!! إنه إذ يُعيد قراءة «هذه الوثيقة.. مخطوطته

القُرْمُزيّة.. وأن يُعيد تحريرها، فإنه يعرض شهادته بأكبر ترتيب، وأكبر تأنٍّ، لكن الوقت قد تأخـر ويقصد الزمن. ثـم يتابع كلامه إلى أمـين وأمينة اللذين عاشا معه في منفاه فاس، وبثَّ الأجيـال وغرناطة من خلالهما أشجانه كلها!! يتابع: الوثيقة أُرسلها إليكما كما هـي مُتراكمة بهذيـان، ودون تنسيق!!، تماماً كما كانت قد تدفقت!! لا وقت عندي ولاثقة بأن في العالم ما يستحق العناء«ص٢٢.

كان حبه.. كما ذكـر آنفاً.. أن يصبح عالماً، لكنهم أرادوهُ أميراً، ولم يفلح.. جذبته القراءة وحب الاطـلاع.. بالمقابل (يتابع): «أجبروني على النضال من أجل البقاء لشعبي.. هناك ظـروف تتوقـف فيها الحيـاة.. تتعطل في لحظة محددة».

كل شـيء يمكن أن يُـزوَّر إلا العواطف، والأفكار الحيَّة، تلك التي يبثها العابرون من الحياة إلى الأجيـال الآتية في لحظة صدق واعـتراف يشبـه الصدى في نشيـد الروح الخالد: «آمـل أن يصل نشيـد القشتاليين الشعبـي إلى أيـدٍ أندلسيـة، وأيديكما من بينها مـا تزال الأهم والأقـل تلطخاً.. وما زلتما تحملان دماً نصريّـاً.. الدَّم النصريّ الوحيد!!. غير الملطخ الموجود على الأرض. أسلافي أشادوا غرناطة، وأنا خَرَّبْتُها!! إقرأا جيداً هـذه الأوراق كي تعرفا كيف؛!؟ ولكن إذا لم تأخذكمـا الرغبـة.. فألقيـا بها إلى البحـر أو إلى النار .. فالأمـر سيّان.. أما ما سيكون، فلا نعـرف عنه شيئاً.. فالعزيز المُقتدر سيقول الكلمة التي يُريد حين تحين السَّاعـة.. إن أي تاريـخ -لا تنسيـا ذلك- لايمكن أن يُحكى قبل أن ينتهي.. أضعتُ ما خفتُ أن أُضيعه، وما انتظرت أن أفوز به ما عُدتُ أنتظره«ص٢٥.

كثـيراً ما ترك التعليمُ الصَّارم، والأفكار العليـا في أبي عبد الله من شيوخه ومعلميه ومـن علماء كبار كابن رشـد وآخرين أسساً لشخصية فكرية تحمل القواعد الثابتة لتلك الأفكار العُليـا؛ ستبرز عميقاً في مخطوطته القرمزيـة التي بـين أيدينـا، والتي تشكل مُنعطفـاً تاريخياً لسيرتـه الغامضة.. وما بُثَّ عنها من تشويهـات وتشكيكات ألحقت بصاحبها الأذى التاريخيّ السَّاحق.

يقول أبو عبـد الله فيما يختص بعلمه وأُسُسِ تفكيره «مـن القليل الذي تعلمته في المدرسـة التـي أسَّسَها سلفـي الأول، ومن

شيوخي الشُيَّبِ الباردين والمزدرين للشباب- شيء واحد هو قاعدة لكل ما عداه: لسنا أحراراً، قدرنا يقفز بنا مُنذُ ولادتنا، يسلم لنا.. كما يُسلم اللوح الذي ندرسُ عليه في طفولتنا الحروف الأولى وتركيباتها. يمكنُ أن يُمحى ما نكتبه عليه، لكن اللوح يبقى ثابتاً، عندما نتعلم القراءة والكتابة يُهدى إلينا كذكرى فنحتفظ به بحنوٍّ وخيلاء طوال الحياة. نحن قدرنا مكتوب منذ البداية، الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نفعله، إذا ما امتلكنا جرأة كافية، هو أن ننسخهُ بيدنا وخطنا، بمعنى أن نؤدي الخَطَّ الذي علمنا إياهُ أحدٌ ما!! الحرية غيرُ موجودة..؛ نمثل دوراً مُبتدعاً ومحدداً!! القدر هو الذي يحكم، لذلك تراني أحترم وأفهم الذين يمتثلون له دون تمرد!! هُمُ الأقربُ إلى إدراك السَّعادة»ص٢٨.

قد ندرك حقيقةً في المخطوطة القرمزية كلها، ونلمح نوعاً من الانهزامية حاداً يلفُّ صاحبها أبا عبد الله، ويلبسه لباسها الآثم!! لكنه... طيلة روايته يلبس الآخرين ثوب الإثم الحالك الذي فصلوه لأجلهم، وألبسوه إياهُ عُنوةً، وهو الذي يفكر بطموح من يريد أن يحكمَ دون أن يكون وُلِدَ على درجاتِ العرش. إن من يقرأ خمسمئة وسبعاً من الصفحات تشكل المخطوطة القرمزية بكاملها كمن يقرأ ليس فقط تاريخ الأندلس الدامي الطويل؛ بل تاريخ العرب الدامي الذي أوجعَ الأجيالَ بنزيفه الحادّ الجارح!! لكنه تاريخ جليلٌ يظل يحتفظ في طياته بتلك الومضاتِ المشرقة التي تبرر كثيراً من اللاممكن، والمستحيل لصالح الاحتمالات المقبولة. وهكذا فعل أبو عبد الله الصغير إذا كشف في سيرته الخرافية المدهشة.. المعقولة وغير المعقولة.. الحقيقة المُرّة، والخيال الغامض الفذّ!! المُلابسات والتواطؤات كافة تلك التي تآمرت على الأندلس بشخصه المضطرب الغامض.. والإنساني المُسالم النبيل لكي يؤول الحال هناك إلى ما آل إليه.. وتقف عائشة أم عبد الله على خرائب غرناطة المدماة المنهارة لتصرخ صرختها المدوية في الدَّهر: لقد ضيعت مُلكاً لم تحافظ عليهِ مثل الرجال!! ولكنْ وللمرةِ الأولى، تتغيرُ الصورةُ في مُراجعتنا المتكررة لانهيار الأندلس، من خلال تلك الوثيقة المذهلة: المخطوطة القرمزية التي وصلتنا من أبي عبد الله

الصغير يكشف فيها أنه ليس الوحيد المَغْنِيّ، والمتواطئ عُنوةً ورغماً عن أنفه بانهيار الأندلس حضارةً وعروبةً وتاريخاً!! ولكنَّ تواطؤاً داخلياً وخارجياً، وظروفاً فوق احتمال المنطق والمعقول، ومُلابسات ودسائس وانهيارات في أسس الحياة كافة!! كلها تضافرت لتصل بالأندلس إلى حافة الانهيار في تآكلاتها المتلاحقة، ثم الانهيار الشامل على أيدي تلك الهياكل الورقية التي ضَحَّتْ بالأندلس والتاريخ من أجل حفنة من التراب لم تحافظ عليها حفنةً عربيةً واحدةً، بل أرادتها حفناً ممزقةً مُقسمةً مُهمشةً ممسوخةً في أيدٍ شرسةٍ تفعل المُستحيل كي تصل إلى بضع المِزَق لتبسطَ سلطانها عليها، ولو أدى ذلك إلى الخراب والدَّمار، والضياع الشامل!! وهذا ما كان !!؟ لقد حاول أبو عبد الله الصغير في ملحمته الروائية الخارقة بكل فصولها وأفكارها وأسطرها أن يُبينَ لنا ويوضحَ أنَّهُ الضميرُ الشعبيُّ، وبطلهُ المُغَيَّب في صورته وفواجعه، وانسحاقاته التي صنعها الآخرون، ولم يكن لهُ يَدٌ فيها!! لقد رأينا أبا عبد الله يوغل في رسْمِ ملامح الذين أحبهم فإذا هم خبز الشعب الذين منحوه لُقمةَ الحياةِ السائغةِ، وأفكارها الجميلة!! هم الذين تعلَّق بهم عشقاً حَدَّ الموت والمستحيل؛ وغرناطة تبرز في كتاب العشق لؤلؤة الفردوسِ الخالد:

لو تقبلين يا غرناطة

لتزوجتُ منكِ..!

ها أنتِ واسمي

بمَنْجاةٍ في الحديقة:

خارجَ الزَّمَنِ!! لا يَطالكما شَرُّهُ!!

* * *

كم حاول أن يجعل من «فاس» منفاهُ معشوقةً بديلةً لغرناطة.. لكنه عجز أن يصنع مثل ذلك: «هذه المدينةُ -ويقصد فاس- عشتُ فيها أكثرَ ممَّا عشتُ في أيَّة مدينةٍ أخرى، لكن شيئاً في داخلي كانَ يناقض هذا!! لن تكون فاسُ مدينتي أبداً، كما لن أكون لها!! لأنَّ الحُلُمَ سَيُجا في عظامي في أرضها تماماً!! تُراني أكتبُ كي أؤجلَ الوداع»..ص١٨.

في بداية المخطوط القرمزي ورقة ملحقة بِهِ بخط أبي عبد الله مكتوب فيها: «لم يستطع الفلكيون أن يُحددوا بُرجي دون خطأ (ربما كان هذا هو المرغوب به بالنسبةِ

للملك) وبالتالي، فـإنَّ كُلَّ ما يُنقلُ عن قَدَري الذي خَطَّتْهُ النجُـومُ خيالات!! وقد فكرتُ أحياناً أنَّ هذا هو مصدر كل غلط: إن السَّير على غير هدى لا يقود أبداً إلى نتائج حسنة!! رغم أن الحياة -مـن ناحية أخرى- ليست إلاَّ سـيراً على غير هُدى!! الأمـور الأكيدة في حياتـي -ولم يكن فيهـا أكثر من اثنين أو ثلاثة- قادتني عامَّةً إلى الأسوأ».

وأخيراً: «صُبَّـا لي كأساً أخيرةً وانسحبا مُقتنعينَ أن أوسم بني نصر ليس الأوسم، بل هو الأتعسـ الموجود هنا بعيداً عن الباقين، أحياءً وأمواتاً، أضاع حتىَّ حَقَّهُ باسم سُلالتهِ، وأغلق عينيه توّاً ليخفي دموعه»ص١٨.

تلك بداية ونهايـة للأسطورة الغامضة: أبي عبد الله الصغـير آخر مُلوكِ الأندلس من خـلال مشاهد تعيد تركيبتها الأسرة في فصولها وأفكارهـا، وأنساقها الفذَّة المؤثرة بلسـانِ صاحبهـا الـذي حـاول أن يرويها خارج إطـار الاعتبارات كلهـا التي عاشها كشاهد علـى عصـر أدلى بشهادته حقيقةً أم خيـالاً بهِ!! تزويـراً أم صدقاً؛ إنما أدلى بكل ما يمكن أن يكون احتمالاً لأيٍّ تصحيح ليمكنُ أن يُعيدَ الاعتبار لتاريخ، وَرَجُلٍ اتُّهما إجحافـاً بِكُلِّ الموبقات، وَحَمَلا عن الآخرينَ زوراً آثامَ تلك الموبقات!! ولكنَّ التاريخ لم ينتهِ بعد!! ولا بُدَّ للأيام من أن تميطَ اللِّثام أكثر عـن حقيقةِ ما كان في الأندلـس: بدءاً من المخطوطة القرمزية المكتشفة.. ذات الوقائع المذهلة وما يتلوها.

الهوامش:

١- المخطوطة القرمزية: يوميات أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس..

× لقد حاول الكاتب الإسـباني الأندلسي الشهير أنطونيو غالاو في هذه الرواية أن يضعنا أمام شخص آخر غير الذي عرفناه، وغير الذي وقعت عليه لعنة التاريخ: إنه شخص آخر من لحم ودم يعيش الحياة حلوها ومرّها، شخص يبكي لأنه يعرف أن التاريخ سيضع على كاهله ما لابدَّ لهُ فيه.

وقـد حصـلت الرواية على جائزة بلانتيا لعـام ١٩٩٠م وهي من أهم جوائز الرواية في إسـبانيا، طبعت الرواية، وأعيدت طباعتها أكثر من عشرين مرة حتى الآن ووصل عدد النسخ إلى أكثر من مليون نسخة (من حيث الترجمة).

٢- قام بترجمة الرواية وتعريبها رفعت عطفة وقامت بنشرها بترا للطباعة.

٣- المقاطع كما وردت داخل الأقواس فكراً ونموذجاً واقتباساً من آراء ومرويات أبي عبد الله الصغير.

٤- استدراك:

شـيء ما في الفكر الأوروبيّ تجاهنا أُمّةً وتاريخاً يبقى مشـوباً بالحذر، ويَظَلُّ مُحتملَ التأويل ضـدنا وملفقاً في عمقه بعناية فائقة!! شـيء ما لا يأتي نقياً وصـافياً وحياديا، بل يشـوبهُ شـيءٌ في العمق يُفسِـدُهُ، ويجعله مثاراً لوحشة الظنون، والانتباهات الرمادية القاتمة!!